

الرقى طبيعة الإنسان

إن أهم الأكر للنفس البشرية هو ارتقاؤها وتطورها من حسن إلى أحسن، ومحاولتها الصعود ولو كان في ذلك فناؤها.

فالإنسان حيوان شريف بالطبع، طموح إلى العلاء، دائب السعي في الرقى، وليس تطوره في الماضي هو الدليل الوحيد على ذلك؛ إذ هو في عقله وجنونه - كما في أحلامه وفي خواطره - دائم الطموح إلى العلاء والرقى.

فنظرية التطور هي نظرية «النشوء والارتقاء»؛ وذلك لأن تاريخ الأحياء في الماضي يدل على أن الأحياء كانت في تطورها ترتقي من حال إلى حال، وهذه النزعة التي تتغشى تاريخه في الماضي لا يمكن إلا أن تكون مستسرة في نفسه نازعة به في المستقبل كما نزلت بأسلافه في الماضي إلى الارتقاء.

وقديماً بحث الناس عن السعادة، ولكننا الآن نكاد نتفق على أنها هي الشعور بالرقى. سواء أكان هذا الرقى بزيادة الصحة أو المال أو الجاه أو العلم، فما دمنا نزداد رقىاً فنحن سعداء؛ وذلك لأن الرقى هو في صميم طبائنا كما هو في صميم تاريخ الأنواع؛ أي تطورها، وإذا بدأنا نشعر بأننا قد وقفنا عن الارتقاء فذلك هو الشعور بالشقاء.

ويمكننا أن نتحسس هذه النزعة حين نغفو غفوة قصيرة فنستسلم
لخواطر لذيدة؛ كأن نعتقد أننا صرنا وزراء أو علماء أو ملوكًا، ونشعر
بالسعادة تغمرنا لهذه الخواطر؛ لأن هذه الخواطر تُشبع في أنفسنا شهوة
الرقبيِّ كما نفهمه من الظروف التي تحوطنا؛ فاللقامر يشعر أنه قد ربح مبلغًا
جسيمًا يجعله في مركز من السيادة يطمح إليه، والنائب في البرلمان تخطر له
خواطر لذيدة عن الوزارة التي سيترشح لها، والشَّحَّاذ تملأ ذهنه خواطر
حلوة عن اللُّقطة التي سيلقاها فيغتني بها.

ففي هذه الخواطر نجد طموحًا وتوسعًا ورقبيًّا.

وهناك من يُجِنُّ فيشعر أنه ملكٌ وأن المملوكية من حقه، فيأمر وينهي
بلهجة الملوك، فهو في جنونه يطمح إلى الارتقاء من حاله الوضيعة إلى حالٍ
قد تخيلها حتى صارت مرضًا في ذهنه.

ثم اعتبرْ هذا الرجل المنتحر كيف يرضى بقتل نفسه؛ لأنه لا يرى أن
الظروف المحيطة به تتفق ورغبته في الارتقاء، فلو أن نفس الإنسان كانت
بطبيعتها منحطة نازلة وليست راقية صاعدة لما رضي إنسانٌ أن ينتحر؛
لأنه إنما ينتحر لأنه يرغب في ذلك الرقبِيِّ الذي يجلبه المال أو الجاه أو
الشرف أو العِرض أو الصحة.

وقد يخطئ المنتحر أو المجنون معنى الرقبِيِّ، ولكن العبرة بالنزعة، أما
المعنى فإنه يكتسبه من الوسط.

فلُبُّ الحياة هو الرقيُّ، وفي صميم نفوسنا هذا الطموح إلى الارتقاء،
ونحن عندما نحب المرأة الجميلة ونشتهي أن نتزوجها إنما نفعل ذلك بفعل
هذه النزعة التي تحملنا على أن نقرن ذاتنا بذاتٍ جميلة فنرتفع في ذريتنا
بارتفاعها، وقد نُخطئ هنا أيضاً معنى الرقيِّ فنحب المرأة المُثريّة.

فالفلسلوجية الحديثة تقول إن الإنسان نزوع إلى الارتقاء، ومن هنا
فضلها على الأخلاق؛ لأنها تجعل الرغبة في الخير أساساً لهذا العلم، وتفرض
فرضاً أولياً أن الإنسان راقٍ بطبعه، لا تتوافر له السعادة حتى يكون دائماً
في الارتقاء، سواءً أكان ذلك في الفرد أم في الجماعة، ولكن هذا النزوع
نفسه هو علّة همومه وجنونه، بل أحياناً انتحاره.